والحقّ أنه خلال هذه اللحظات الطويلة من الصمت والنشوة أحسّ «ماني» للمرّة الأولى برغبة لا تُقاوم في الرسم تعتمل داخل كيانه. وإنها لرغبة عجيبة بالنسبة إلى واحد من «أصحاب الملابس البيضاء»، رغبة مُلْحِدة، رغبة آثمة. فبأية معجزة أمكن أن تتفتّح موهبة «ماني» وأعماله في ذلك المحيط المتمرِّد على كل جمال وكل لون وكل أناقة تُبديها الأشكال، وفي وسط تلك الجماعة التي ترى في أبسط أيقونة مَعْلَماً من معالم الوثنية؟ «ماني» الذي يبدو بمرّ القرون وكأنه المؤسِّس الحقيقي للرسم الشرقيّ، هو الذي سوف تخلق كل ضربة من ضربات ريشته، في (فارس) و(الهند)، وفي (آسيا الوسطى) و(الصين) و(التيبت)، ألفَ موهبة فنّية. حتى إنه ما يزال يُقال في بعض النواحي عن أحدهم إنه «ماني» عندما يُراد القول بعدد من علامات التعجّب إنه «رسّام، رسّام حقيقي».

عندما أزفت ساعة الانصراف بدرت من الغلام الذي كانَهُ بادرة غريبة كان من الممكن أن تبدو عجيبة لو لم يكن مُفْعَماً بالانفعال. فقد انحنى بتصلّب أمام والد «كُلُوويه» والتمس منه إذناً بترميم الرسم الجداريّ. وحرص «شارياس» على الإمساك عن الضحك لأنه شعر بأن الصبيَّ كان على وشك البكاء. ولم يتمالك من تمتمة قبول تُحرَج ردّ عليها «ماني» بمصافحة لائقة بإنسان بالغ.

وإذ رآه «اليوناني» يبتعد وهو يظلع في مشيته، فقد ظلّ موزَّعاً بين الانزعاج من أنه عهد بمثل هذه المهمّة إلى طفل، والشعور ـ على الرغم من كل شيء ـ بأنه يتعامل مع شخص فذ كان، لسبب من الأسباب، يهزّ شعوره هو، «شارياس» العجوز، بل يُخيفه.

انصرف «ماني» خلال الأسابيع التي تلت إلى اتّخاذ التحضيرات. الفراشي أولاً، وقد صنعها بيديه من قَصَبات ربط إلى أطرافها أوبار ماعز حصل عليها من القرية للحصول على لمسات ناعمة، أو أوباراً قاسية مأخوذة من الأرانب البرّيّة. ثم كانت الألوان، متسترةً أو صارخة، التي استنبطها أو ركّبها بنفسه بشغف ومهارة: رمل، وقد فصل الحُبيبات ذات اللون الأمغر أو القرميدي؛